بنية المجتمع العراقي في العهد الملكي من منظور حنا بطاطو وكتابه العراق

The structure of Iraqi society in the royal era from the perspective of Hanna Batatu and his book Iraq

Dr. Azhar Hadi Fadel
Assistant Professor
College of Education for Human Sciences - Department of History
M.D. Interview with Khalil Ismail
Teacher
Nineveh Governorate Education Directorate

د. ازهار هادي فاضل
أستاذ مساعد
كليــة التربيــة للعلــوم الانســانية–قســم التاريخ
د. لقاء خليل اسماعيل
مدرس
مديرية تربية محافظة نينوى

azhar_hade@yahoo.com

الكلمات المفتاحية: مجتمع حديث طبقي– طبقة– الطبقية والحزبية– طائفة- ملاك الاراضي

Keywords: class modern society- Class- Clasp and party- Sect- Landowners

الملخص

يعالج البحث فهمنا للتحولات البنيوية التي طرأت على المجتمع العراقي وأثرت تاثيراً كبيرا في هيكلية وبنية الطبقات الاجتماعية وتحولها من مراحل تقليدية مبنية على ولاءات قبلية وعشائرية، الى مجتمع حديث قائم على الطبقية الحزبية وملاك الاراضي ورؤس الاموال، وممتزجة بالقبلية والعشائرية.

Abstract

The research deals with our understanding of the structural changes that have occurred in Iraqi society and have had a great impact on the structure and structure of social classes and their transformation from traditional stages based on tribal and clan loyalties, to a modern society based on partisan class, land owners and capital, and mixed with tribalism and clanism.

المقدمة

جاءت دراسة حنا لتاريخ العراق الحديث دراسة شاملة ومفصلة بحيث ساد اعتقاد بأنه لم يعد هناك ما يكتب عنه في تاريخ العراق الحديث، ونموذجاً لدراسة تاريخ المجتمعات العربية. ودرس بمنهجية اثر كل من الطبقة والوجاهة والعوامل البنيوية في صناعة السياسة العراقية الحديثة. وموضحا اهم التغيرات التي طرأت على المجتمع العراقي وبنيته من العهد العثماني وحتى قيام الجمهورية فيه عام ١٩٥٨م.

ركز بطاطو في هذه الدراسة على اهم التغيرات التي طرات عليه، والتي اثرت على المجتمع ككل، وعلى هرمية وبنية طبقاته الاجتماعية. والموضوعة الأساسية التي اعتمدها في دراسته على المنهج الطبقي في تحليل العلاقات الاجتماعية والسياسية في العراق من وجهة نظر ماركس وفيبر في تتبعه لتطور المجتمع العراقي وخاصة بنيته الاجتماعية، وجاء هذا الامر نتيجة لتحول المجتمع العراقي من مراحل تقليدية مبنية على ولاءات قبلية وعشائرية، الى مجتمع حديث طبقي امتزجت فيه الطبقية والحزبية، مع الولاءات القبلية والعشائرية.

اشكالية البحث

سيحاول البحث اماطة اللثام والوقوف عن اهم التساؤلات التي واجهت دراسة بطاطو حول بنية المجتمع العراقي وطبقيته، وتمثلت في:

- ماهي اهم القوى التي اثرت على هيكلية وبنية الطبقية فيه؟.
- الى اي مدى اثرت هذه التحولات في طبقيته؟.
- كيف استطاع افراد هذا المجتمع والقائم على العشائرية والطبقية والاثينية أن يحدث تغير في طبيعة طبقيته وتحول المجتمع العراقي من مجتمع زراعي وقبلي في غالبه الى مجتمع حديث؟.
- ماهو اثر السوق العالمية في تغييرات طبقية المجتمع العراقي؟.
- ماهي اهم التغيرات السياسية التي ترتبت على هذا التغير في بنيوية المجتمع العراقي؟.
- كيف استطاع شعب قائم على التقسيم العشائري والطبقي والاثيني ان يحدث تغيرا سياسيا؟.
- ماهي المنهجية التي سار عليها بطاطو في دراسته وتتبعه لهذه التحولات البنيوية؟.

اهداف البحث

يهدف البحث الى تحقيق:

- الوقوف على اهم التحولات البنيوية التي اثرت في بنيته الطبقية؟.
- معرفة القوى التي ادت الى تحول طبيعة طبقية المجتمع العراقي، وكان لها دور كبير في تحوله من زراعي الى مجتمع حديث؟.
- محاولة استشاف المنهجية التي انتهجها بطاطو في دراسته للتحولات الطبقية في ٢٢العراق؟.

اهمية البحث

اتسمت دراسة بطاطو حول العراق بالاهمية الكبرى لكل من يريد الكتابة عن تاريخ العراق الحديث واهم التحولات التي طرأت عليه، فهي تعتبر بمثابة الانجيل للباحث في تاريخ العراق الحديث، وتتجلى اهميتها في:

- تعد دراسته نموذجا لدراسة المجتمعات العربية.
- تتبعه لأثر كل من القوى والوجاهة والعوامل البنيوية التي ادت للتحول البنيوي المجتمعي والذي اثر في صنع السياسة العراقية الحديثة ومحاولات الشعب العراقي في صياغة مستقبله السياسي ولعب دوره الاقليمي والدولي، رغم القصور الذي حصل في هذا الجانب.

- استطاع افراد المجتمع العراقي والقائم على الوجاهية والعشائرية أن يحدث تغير بنيوي في طبقيته ليضع بطاطو امكانية صنع مشروع وطني ضمن حدود الطبقة والعشيرة عن طريق التحالفات بينها.
- تكمن اهمية دراسته في منهجيته التي اتبعها في تأريخية الطبقات الاجتماعية العراقية، والتي ولدت في غضون تحولات السوق العالمية.

المؤرخ حنا: سيرته

مواطن فلسطيني من مواليد القدس عام ١٩٢٦م. نشأ وترعرع فيها وتعلم في مدارسها. في عمر الثانية والعشرين رحل إلى أميركا في عام النكبة ١٩٤٨م. وتركتْ نكبة فلسطين والشعب الفلسطينيّ أثراً بالغاً في حياته. وتابعَ دراستَه بين عامَي ١٩٥١ و١٩٥٣ في كليّة إدموند والش للشؤون الخارجيّة في جامعة جورج تاون في واشنطن،(١) وحاز على جائزة مرموقة مخصّصة للطلاب في مرحلة البكالوريوس. كما حصل على منحةٍ لدراسة العلوم السياسيّة في جامعة هارفارد حيث إلتقى بارنغتون مور جونيور،(٢) وهربرت ماركوزه،(٣) وتأثّر بشدّةٍ بمنهجهما الماركسيّ. واخذ يدرس تاريخ الشرق الأوسط.(٤) في عام ١٩٥٣ توج الملك فيصل الثاني على عرش العراق وزار حينها مع خاله الوصي عبدالاله الولايات المتحدة الأمريكية، ومطلعاً على المنجزات الأمريكية وانعكس هذا الاعجاب بمشروعات مجلس الأعمار العراقي،(٥) فاكتسب عهد الملك فيصل الثاني اعجاب الغرب، ومنهم بطاطو وتجسد اعجابه باطروحة دكتوراه من جامعة هارفرد في عام ١٩٦٠ وقدّمها بعنوان «الشيخ والفلّاح في العراق»، ١٩١٧ – ١٩٥٨.

عرف بطاطو برهبنته في الحياة. ولم يكن معروفاً في الأوساط العلمية العربية حتى السبعينات، وكان قد درّسَ في الجامعة الأمريكية في بيروت بين الأعوام ١٩٦٢ و ١٩٨٢م استاذاً لتاريخ الشرق الأوسط. وبعد اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية عاد للولايات المتحدة

---

(١) اسعد ابو خليل، "حنا بطاطو مؤرخ الطبقات الاجتماعية العربية الفذ"، مجلة الاخبار، لندن، العدد ٢٤٢٨، السبت ٢٥ اكتوبر عام ٢٠١٤.

(٢) عالم اجتماع سياسي امريكي اشتهر بدراسته للأصول الاجتماعية لكل من الانظمة الديمقراطية والدكتاتورية، والف كتاب: الجذور الاجتماعية للديمقراطية والديكتاتورية: See: Barrington Moore, Jr, Social Origins of Dictatorship and Democracy: Lord and Peasant in the Making of the Modern World, (Press, Boston, 1966).

(٣) مفكر يساري الماني انتقد التجربة السوفيتية وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٣م، واشتهر بفلسفته النقدية: See: Lemert, Charls. Social Theory: The Multicultural and Classic Readings, (Press, Boulder, CO, 2010), Cf.

(٤) سيار الجميل و ابراهيم الحيدري وآخرون، حنا بطاطو في سيرته ومنهجه وتفسيره لتاريخ العراق، تحرير: مازن لطيف، ط١، (لبنان، كندا، ٢٠١٥م)، ص:١٣.

(٥) للمزيد ينظر: علي ابو الطحين، ملك العراق الصغير فيصل الثاني، ذكريات مربية الملك بتي موريسون وصديقه مايكل ارنولد، ترجمة واعداد: علي ابو الطحين، ط١، (بغداد، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر، ٢٠١٥م).

الأمريكية ليدرس للفترة ١٩٨٢-١٩٩٤ في جامعة جورجتان في أمريكا، حتى تقاعد وعاش لوحده في بيت ريفي حتى وفاته.[١] وبدأ دراسته حول العراق في بداية الخمسينات وركّز في دراسته تلك على الحزب الشيوعي ومنطلقا من ايمانه بالماركسية. وتوفي في وينستيد، كونكتيكَتْ، الولايات المتّحدة الأمريكية عام ٢٠٠٠م.[٢]

منابعه الفكرية

غادر حنا فلسطين متوجهاً للولايات المتحدة الأمريكية في عام النكبة عام ١٩٤٨م، وانخرط خلال السنتين الاوليتين من دراسته في امريكا في الدراسات الروسية، وتعمق في الماركسية. وجذبه بعدها تاريخ الشرق الأوسط وخاصة العراق الذي زاره وكتب اطروحته عنه، وسوريا والسعودية.[٣] ونتيجة شغفه بالماركسية تأثر كما اشارنا آنفاً بمنهجية بارنغتون مور جونير وخصوصاً لدراسته للعلاقة بين الفلاح والسلطة، وفكرياً بهربرت ماركوز و جارلس رايت مولر وكتابه (نخبة السلطة).[٤]

منهجيته في دراسته لتاريخية المجتمع العراقي

لكل علم من العلوم موضوع ومنهج خاص به يعطي له الشرعية العلمية، لذلك ترتبط المشكلة بمدى علمية المنهجية في دراسة طبيعة الموضوع في ذلك العلم. وقد اجتهدت تيارات مختلفة في تأسيس مناهج علمية لدراسة الظواهر الاجتماعية وغيرها.

وللحديث عن المنهجية الاجتماعية التي استخدمها حنا في دراسته للمجتمع العراقي وطبقيته واهم تحولاتها، فلابد من التطرق الى اهم المناهج التي استلهم منها دراسته وتبلورها من خلال منهجيته الاجتماعية والتي تمثلت بـ:

---

(١) الجميل واخرون، حنا بطاطو، ص: ١٦.

(٢) دينا رزق خوري، "تاريخ العراق ومجتمعه بين حنا بطاطو وعلي الوردي"، مجلة عمران للعلوم الإجتماعية والإنسانية، العدد ٢٤/٦، (الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ربيع ٢٠١٨م)، ص:٩-١٠.

(٣) الجميل واخرون، حنا بطاطو، ص: ١٤-١٥.

(٤) عالم اجتماع امريكي ولد سنة ١٩١٦م، وتوفي عام ١٩٦٢م، عمل استاذ في جامعة كولومبيا ميلز. وكانت لكتاباته تأثير كبير في الحركات الاجتماعية اليسارية في الستينات من القرن الماضي: للمزيد عنه ينظر: Mills, C. Wright, Letters and Autobiographical Writings. (Berkeley and Los Angeles, Califomia: University of California Press, 2000).

- منهج البحث الجدلي المركب من ماركسية محدثة (سميت بالمادية الجدلية لان طريقتها في اعتبار الظواهر الطبيعية ومنهجها في البحث والمعرفة جدليان، وتفسيرهما للظواهر الطبيعية ماديان، وعلى ارتباط الواقع بظروفه)،[١] ومنهج ماكس فيبر (يهدف الى تأويل الوقائع والنصوص بهدف الاحاطة بالنشاط الانساني ورصد معناه والغرض منه، والفعل الاجتماعي هو السلوك الذي ورائه غاية او نية.[٢] لقد نجح بطاطو في استخدام منهج ماكس فيبر في دراسته لتاريخ العراق من خلال تطبيق نهج القرابة وفحص السلالات عن طريق تاريخها الاجتماعي.[٣] وفيما يخص الماركسية المحدثة فقد انعكست في تفسيره لشؤون العراق الاجتماعية والسياسية.[٤]
- منهج التحليل البنيوي (منهج ساد في السبعينات من القرن العشرين في الجامعات الغربية في اقسام علم الاجتماع، تنظر للطبقات باعتبارها نسق من التحولات يحتوي على قوانينه الخاصة ، ومن شان هذا النسق ان يظل قائما ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم به هذا التحولات بنفسها دون ان تستعين بعناصر خارجية). فقد كتب حنا عن العراق متأثراً بالبنيوية الروسية والفرنسية.[٥]
- استخدم المنهج الكمي وطريقة رقمية مقارنة وتحليلية، فقد كان مقارناً ومعايناً ومتعقباً للشخوص وحركتهم في مكوناتهم الأسرية أو القبلية أو الدينية أو الطائفية واصولهم الاجتماعية وتنظيماتهم السياسية.[٦]

حاول بطاطو بمنهجيته تفسير الواقع الاجتماعي العراقي بعيدا عن منهجية احادية الجانب، ويعود الامر الى صعوبة تطبيقه في دول في طور النمو، وطبقاتها الاجتماعية هشة ومتغيرة وهي مازالت في طور النمو والتهيكل، التي جاء تشكلها تلبية لحاجة بيئتها التي كان لها الدور الاكبر في هذا التهيكل، الى جانب رؤية وتصور هذه الطبقات لنفسها في العراق. وقد اوضح بطاطو سبب استخدامه للمنهجية المركبة بقوله انه قد جرى التعميم بعدم امكانية

---

(١) للمزيد ينظر: فاسيلي بودوستنيك، الف باء الجدلية، ترجمة جورج طرابيشي، (دار الطليعة، ١٩٧٩م).

(٢) جميل حمداوي، علم الإجتماع بين الفهم والتفسير، الالوكة www.alukah.net، ص: ٢٤.

(٣) الجميل وآخرون، حنا بطاطو، ص: ٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٢٦.

(٥) جان بياجيه ، البنيوية، ترجمة: عارف منيمنة وبشير اوبري، ط٤، (بيروت، منشورات عويدات، ١٩٨٥م)، ص: ٨.

(٦) الجميل وآخرون، حنا بطاطو، ص: ٢٦.

تطبيق التحليل الطبقي الاجتماعي–الكلاسيكي؛ وهو تحليل قائم على اراء ماركس وفيبر، على المجتمعات العربية التي نفي عن مجتمعاتها وجود الطبقية فيها. ولايجوز التعميم في ذلك لأنه يفتقر للبرهان.(١)

بنية المجتمع العراقي في أواخر العهد العثماني

سيطر العثمانيون على العراق زهاء اربعة قرون وانتهت هذه السيطرة بعد قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م. بلغت نسبة البدواة في المجتمع العراقي آنذاك حوالي ٣٥% من مجموع سكانه، إذ كان العراق آنذاك مطمح انظار القبائل البدوية التي كانت تجوب الصحاري المتاخمة للعراق وتنتهز الفرص للتسلل إليه بين آونة واخرى مستغلة ضعف السيطرة الحكومية وشيوع الفوضى والنزاع القبلي فيه اضافة إلى توالي الأوبئة عليه والتي كانت تقضي على الكثير من سكانه وخاصة المدن.(٢)

ويقف عامل حياة الخشونة التي كانت تعيشها هذه القبائل البدوية وما شكله من ضغط عليها السبب الدافع لها للتسلل للعراق إلى جانب ما كان يتمتع به العراق من مياه وفيرة وارض خصبة، مما جعله في موقع جذب لأنظارها. وادى دخول هذه القبائل إلى اختلاط نسبها بنسب قبائله الاصلية، ومن هنا تأتت زيادة نسبة البداوة فيه.(٣)

وتوزع سكان العراق في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إلى فئات نسبية شكلت القبائل البدوية فيه نسبة ٣٥% من سكانه، وسكان الريف نسبة ٤١%، واهل المدن ٢٤%. فالبدواة فيه شكلت نسبة ٧٦%، والحضر نسبة ٢٤% من مجموع السكان. هذه النسب جعلت القبائل تشكل عامل تهديد وغزو للمدن الأمر الذي دفع اهالي المدن لاتخاذ القيم البدوية للحماية منهم في ظل ضعف الحكومات آنذاك، فشاعت لديهم تقاليد العصبية والثأر وغيرها.(٤)

وشهدت مناطق وسط وجنوب العراق وخاصة منطقة الفرات الأوسط والسهل الرسوبي ظهور اتحادات قبلية قوية تشبه الحكومات الصغيرة تزاول الاعمال الحكومية وكأنها مؤسسات

(١) بطاطو، العراق، ص: ٢١.
(٢) الجميل وآخرون، حنا بطاطو، ص: ١١٧.
(٣) المصدر نفسه، ص: ١١٧–١١٨.
(٤) المصدر نفسه، ص: ١١٩.

قائمة بذاتها ولكنها كانت تدفع مبالغ تضمين منصب للحكومة العثمانية .[١] واشهر هذه الاتحادات بنو خزعل والمنتفق في مناطق الفرات الأوسط، وبنو لام وزبيد في جهة دجلة، وبنو البو محمد في نواحي العمارة.[٢] وتطور الأمر بعد ذلك بحيث تركت اغلب القبائل البدوية حياة البداوة واحترفت الزراعة إلى جانب احتفاظها وتمسكها بقيمها البدوية القديمة، ولكنها كانت تستنكف من مزاولة بعض المهن والانشطة الحرفية كزراعة الخضرة وصيد السمك بالشباك والبقالة وغيرها.[٣]

ومن ويضاف للتركيبة السكانية الأخرى للمجتمع العراقي، الجاليات الأجنبية التي جاءت من (ايران، وافغانستان، واذربيجان، والهند)، وسكنت اغلبها المناطق الشيعية وبمرور الزمن انصهر هؤلاء مثلهم مثل القبائل البدوية في البودقة الاجتماعية العراقية المتنوعة الاجناس والمشارب والثقافات والقوميات والاديان والمستوى الاقتصادي والمكانة الاجتماعية.[٤] وأدت هذه الاختلافات والتنوعات في كثير من الاحيان إلى تنوع بنية الطبقة الاجتماعية وتداخلها وصعوبة التمييز بين طبقاتها، وظهور الصراع في تكوين الشخصية العراقية.

التحولات البنيوية لطبقات المجتمع العراقي ودورها في تشكل هيكليته الطبقية في العهد الملكي من وجهة نظر حنا بطاطو

استعرض بطاطو أهم الاتجاهات والمعتقدات الموضوعية للبنية الاجتماعية التي تشكل الطبقات قديماً وتباين العناصر المكونة لها، ينتقل الى محاولة اجراء تحديد دقيق للطبيعة الاساسية لظاهرة الطبقية في المجتمع العراقي، وما هي أهم التحولات التي كانت تقف وراء تغير بنية هذه الطبقات.[٥]

بدأ بطاطو مناقشته لهذه التغيرات بوضع تعريف اجرائي للطبقة بانه عبارة عن تكوين اقتصادي في اساسه بالرغم من انه يشير في النهاية الى الموقع الاجتماعي للأفراد والعائلات المكونين له في مظاهره المختلفة. ويشير الى ان مفهوم الطبقة يتطلب مسبقاً وجود

---

(١) عبدالرزاق الحسني، العراق قديما وحديثا، ط١ منقحة، (بيروت، الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٣م)،ص: ١٥٤.

(٢) عباس العزاوي، موسوعة عشائر العراق، (د.م، الدار العربية للموسوعات، ١٩٥٢م)، ١٢٤/٧.

(٣) الجميل وآخرون، حنا بطاطو، ص: ١٥٧.

(4)Harry Barnes., History of Sociology, (University of Chicago Press, 1966m), p. 504.

(٥) بطاطو، العراق، ٢١/١-٢٣.

فكرة المساواة واللامساواة. واللامساواة[١] تتطلب وجود طبقة اخرى على الاقل الى جانب فئات أخرى أصغر، وعلى اعتبار اللامساواة تعتمد اساساً على (الملكية) التي تشكل العنصر الاساسي لوضع الطبقة الاجتماعية.[٢]

يؤكد هنا على انه ليس بالضرورة القبول بهذه المفاهيم المختلفة او بمضامينها الكامنة إلا اذا كانت قابلة للتطبيق على الحالة قيد الدراسة. لذلك لجأ في تأكيده هذا على رأي كل من جيمس ماديسون، وكارل ماركس، وماكس فيبر، الذين يؤكدون على أن الملكية والافتقار الى الملكية يشكلان العنصرين الاساسيين لوضع الطبقة او التحزب، وهذا التضاد يحتوي على بذور العلاقة التنافرية.[٣]

نلاحظ أن بطاطو بطرحه لفكرة اللامساواة هنا ابتعد بها عن مفهومه الاشتراكي بالمساواة، لذا نراه يستدرك ذلك من خلال تأكيده على ضرورة فهم الملكية في اطارها التاريخي، فهي ذات اشكال وظواهر متباينة ومختلفة، تختلف في السمة والمغزى في ظل ظروف مختلفة. وكون هذه الطبقات ذات اشكال متعددة وظواهر متباينة، فيمكن لهذه الطبقة أن توجد بشكل مميز خاص بها أو تكون عنصر داخل مجموعة ذات مكانة خاصة كقسم يضم اصحاب الأراضي الذين يكونون جزء من مجموعة شيوخ العشائر، أو تضم نخبة عمالية ارستقراطية ضمن اكثرية عمالية. فهنا (النخبة والطبقة)، لا تشكلان مفهومين مقصورين، إذ يمكن للطبقة الواحدة أن تتضمن طبقات فرعية عليا ووسطى ودنيا ترتبط بروابط مختلفة، فلا يمكن جمع طبقة ملاكي الأراضي وصغارهم بروابط مشتركة مع وسائل الانتاج، أو عملية الانتاج، أو ملكية هذه الوسائل الانتاجية مثلاً.[٤]

---

(١) اوعز اللامساواة للتفاوت المادي النابع من مشيئة الهية (طبيعية)، وهو ميزة مشتركة في المجتمعات التقليدية وما قبل الصناعية، وهي جزء من النظام الطبيعي للأمور والذي يعطي للأفضل الحصة الأكبر من المكافأت التي يقدمها المجتمع، ولذلك ارتبط الركود الاقتصادي في المجتمعات التقليدية بالصلابة الاجتماعية فيما يتعلق بالأنظمة الطبقية. وأدى تطور الرأسمالية الصناعية إلى قدوم الحداثة، ومن هنا فسر التفاوت المادي والطبقي وتبرير شرعيته: روزماري كرومبتون، الطبقات والتراصف الطبقي، ترجمة: محمود عثمان حداد و غسان رملاوي، مراجعة: سعود المولى، (بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٦م)، ص: ٤٢-٤٣.

(٢) بطاطو، العراق، ص: ٣٣.

(٣) الجميل وآخرون، حنا بطاطو، ص: ١٠١.

(٤) بطاطو، العراق، ص: ٢٥.

إذ تألفت البنية الطبقية العراقية في مطلع القرن العشرين من عناصر متباينة غير مستقرة نسبياً ولا تتميز بالثبات، فمثلاً نجد أن ملاك الأراضي أو التجار كانوا متمايزين من حيث حجم الأرض التي يملكونها، أو مستوى الدخل، أو مقدار رأس المال، أو النفوذ السياسي والهيبة الاجتماعية والوجاهية والأثنية (عرب أو اكراد أو تركمان، وغيرهم). في حين هؤلاء كانوا مختلفين من حيث تشكيلاتهم الاجتماعية المتباينة مثل الأغوات القبليين من ملاك الأراضي، أو الشيوخ القبليين من ملاك الأراضي، أو الموظفين الملاك والمضاربين والصيرفين ملاك الأراضي وغيرهم.(١)

ساهمت عوامل عديدة في تشكيل هيكلية وبنية هذه الطبقات، ويأتي على رأس الهرم التحول التدريجي للعراق نحو النظام الرأسمالي العالمي، عن طريق ربط العراق بالسوق الامبراطورية البريطانية الصناعية. نتيجة لهذا الربط القائم على الصناعة الكبرى حدوث تغلغل شكل اجتماعي جديد يسعى لتحقيق الربح وتوسيع الملكية الخاصة في حين كانت الاشكال الاجتماعية القديمة تعطي القيمة للتمايز على اساس نبالة النسب أو المعرفة الدينية والقدسية أو المقدرة الحربية في الغزوات، وليس على اساس الملكية.(٢)

وعلى الرغم من أن الملكية لم تكن هي الأساس المسيطر في التراتب الاجتماعي إلا أننا تلاحظ أن الطبقات كانت موجودة في المناطق الحضرية بشكل بدائي ومتوازي مع مجتمعات دينية معترف بها. وهذه الطبقات اتسمت بطابع اقتصادي بحت بعيداً عن أي مظهر سياسي، ذات روابط محلية إلا في حالة المتعاملين بالمال وخاصة التجار ذوي الطبقية الحضرية–العشائرية–عربية–دولية. إلى جانب تباين البنى الاجتماعية للمدن والاقاليم العراقية المختلفة، فهي تتباين على اساس اختلاف وظائفها التاريخية، فمدينة سوق الشيوخ تختلف عن مدينة النجف المقدسة ذات المكانة الدينية عند الشيعة، وعن بغداد كعاصمة ومركز تجاري مهم.(٣)

ويضاف لهذه الاسباب، تمركز ملكية الارض في ايدي عدد قليل من الشيوخ والاغوات وتحولهم لشبه اقطاعيين اثرياء، واصبحت الملكية قاعدة للتراتب الاجتماعي. الامر الذي اثر على طبيعة العلاقات والروابط العشائرية، فالعشائر والمحلات والأصناف كانت تعبير عن النزعة الفطرية لأفرادها للحصول على الحماية في ظل غياب الحماية الحكومية. ومن هنا اصبح المشايخ ملاك الاراضي والسادة ملاك الاراضي ذوي منزلة اجتماعية قائمة على اساس تقليدي، ومن ناحية أخرى اصبحوا طبقة متحولة ببطئ وهدوء. وهؤلاء الملاك

(١) بطاطو، العراق، ص: ٢٥–٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٢٦–٢٧.

كانوا يتنافسون فيما بينهم، وفي الاربعينات رصت صفوفها في سبيل الدفاع عن مصالحها مثل اعفائها من الضرائب واستبعادها عن مناصب الدولة. ونتيجة رص صفوفهم اصبحت لهم سلطة على البرلمان ومجلس الوزراء، ونظموا انفسهم بحزب الاتحاد الدستوري. الى جانب انهيار نظام الاكتفاء الذاتي، والهجرة الواسعة من الريف نحو المدن، كل ذلك ادى الى افتقار الزراعة في العراق.(١) وازداد اليقين بمقولة (من يملك الأرض يملك حق الربط والحل في البلاد).(٢)

ان التحولات البنيوية ادت الى حدوث تغيرات في هيكلية او بنية الطبقية الاجتماعية العراقية، اذ شكل ملاك الاراضي طبقة بذاتها، والتي ستتحول فيما بعد لطبقة لذاتها، الامر الذي ادى الى اضعاف الروابط العشائرية التي كانت قائمة على اساسها العلاقات مابين الطبقات المختلفة. ونلاحظ ايضا توحد مصالح ملاك الاراضي مع مصالح الاستقراطيين والضباط والشريفين، مما استدعى الامر الى تشكيل تحالف من اجل الدفاع عن المصالح المشتركة. ولم تكتفي طبقة ملاك الاراضي في تقوية مركزها بهذه التحالفات، بل ايضا استفادت من قانون تسوية الاراضي الاقطاعية، الذي سنته الحكومة لغرض ضمان ولاء هذه الطبقة للسلطة الحاكمة.(٣)

وكان لفكرة الربح بين بعض العشائر وانتقالها من اقتصاد الكفاف نحو اقتصاد السوق، وحالة التنافس بين زعماء القبائل ملاكي الاراضي، ادى كل ذلك إلى التحول في الولاءات العشائرية القديمة إلى عملية ولادة جديدة قائمة على القومية، وهذه الحالة كانت متماشية جنباً إلى جنب مع الولاءات القديمة وليس لاغية لها.(٤)

لقد ساهمت عوامل عديدة في نمو الشعور القومي لدى العراقيين منها: تزايد اعداد الشباب الملتحقة بالأكاديمية العسكرية في استانبول، والانفتاح على الفكر الغربي الأوربي، ورفض والتصدي لسياسة التتريك، وفشل سياسة الحكومة التركية في ادارة العراق، وانتشار الكتب والصحف، والتواصل مع الشباب العربي في مختلف البلدان العربية، وكذلك ظهور النوادي والجمعيات العروبية والاهتمام بالتاريخ العربي، واستنهاض الروابط المشركة بين مختلف اثينياته العرقية، إلى جانب ولادة شعور المقاومة والتصدي للغزو والاحتلال الانكليزي

(١) بطاطو، العراق، ص: ٢٨-٣١.

(٢) المصدر نفسه، ص: ١٤٣-١٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٤٥-٥٠ و ٧٥-٨٠ و ٨٩-١٠٠.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٤٠-٤١.

للعراق منذ عام ، ١٩١٤م، والمتمثل بثورة العراق الكبرى (ثورة العشرين ١٩٢٠م)، التي وحدت صفوف العشائر العراقية المختلفة على مختلف قومياتهم ودياناتهم ومذاهبهم.(١)

اخذت طبقة ملاك الاراضي وبعد تحولها لطبقة لذاتها، تدعو لنفسها سياسياً في الاربعينات والخمسينات من القرن العشرين الميلادي، ويقابل ذلك ظهور طبقة متوسطة اخذت تنمو وتنشط مع تزايد نفوس المدن، الى جانب تدفق واردات النفط والتحول الى سوق الاقتصاد العالمي كما ذكرنا آنفاً، وانتشار التعليم والصحافة، وانتشار الوعي الوطني والقومي.(٢)

وساهمت هجرة يهود العراق(٣) في نهاية الاربعينيات وبداية الخمسينات من القرن العشرين في احداث تغير في طبقية المجتمع العراقي. ففي ظل الحكم العثماني للعراق كانوا يؤلفون جماعة (مِلة)،(٤) معترف بها تتعامل معها الحكومة من خلال قادتها، الذين تقلصت سلطتهم خلال القرن التاسع عشر. وكان على رأس الطائفة اليهودية في بغداد مجلسان: أحدهما علماني والأخر علماني، يستمدان سلطاتهما من خلال مرسوم صادر عن السلطان العثماني عام ١٨٦٤م، ومن قانون الطائفة اليهودية رقم ٧٧ لسنة ١٩٣١م.(٥)

بلغ عدد افراد الطائفة اليهودية في العراق ١١٦٠٠٠نسمة، ويشكلون نسبة ٢,٦% من مجمع السكان. وبلغ عددهم في بغداد عام ١٩٤٧م (٥٠٠٠٠) نسمة.(٦) عملوا خلال القرن التاسع عشر في الحرف اليدوية، واعمال تجارية صغيرة، أو كبائعين متجولين في بغداد، أو بالزراعة في مناطق كردستان. وفي آواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين زاولوا

---

(١) علي آل بازركان، الوقائع الحقيقة في الثورة العراقية، (بغداد، ١٩٥٤م)، ص: ٩٠-٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٢٩-٣٠ و ٤١-٤٤ و ٥١-٥٥.

(٣) اختلفت الاقوال في اصول يهود العراق، منهم من يرى انهم يعود اصلهم للجزيرة العربية، في حين هناك رأي يقول انهم من بقايا السبي البابلي في عهد الملك نبوخذ نصر، والبعض يرى انهم من يهود اسبانيا الذين تركوها بعد سقوط الاندلس إلى مناطق البحر المتوسط ومنهم من توجه للعراق: اسرائيل ولفسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب: في الجاهلية وصدر الإسلام، ترجمة: جوزيف نسيم، (مصر، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٢٧م)، ص: ١١-١٢، ٧٥؛ احمد سوسة، حياتي في نصف قرن، (بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦م)، ص: ٩٠؛ نسيم رجوان، موجز تاريخ يهود العراق: من سبي بابل إلى نزوحهم عام ١٩٥١م، (القدس، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، ١٩٩٨م)، ص: ٣٤.

(٤) بطاطو، العراق، ص: ٢٩١.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٢٩١.

(٦) يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ اليهود العراق، (بغداد، مطبعة الفرات، ١٩٢٤م)، ص: ١٨٣.

اعمالاً في مجال الائتمان والمصارف والتجارة الخارجية التي احتكروها بأيديهم، وهذا الاحتكار كان نتيجة لامتلاكهم رؤوس الأموال، ووفرة ارصدتهم في البنوك، وقدرتهم على الاقتراض وفتح الاعتمادات عن طريق سيطرتهم على الصرافين المقرضين للأموال. واغلب تجارتهم الخارجية كانت مع الانكليز[١] والهند.[٢]

اسست تجارة بغداد آواخر الثلاثينات وضمت (٢٥) عضواً اغلبهم من الأنكليز والشركات الأمريكية–الفرنسية–الأنكليزية، ومثل فيها يهود بغداد بـ (١٠) اعضاء. وتزامن التقدم التجاري ليهود بغداد مع توسع المصالح البريطانية في العراق على الرغم من التنافس التجاري بينهما. وعملوا أيضاً بالوظائف الخدمية المدنية في ظل الحكم البريطاني للعراق إلى جانب تجارتهم.[٣]

وشهد المجتمع العراقي في ظل الحكم الملكي ازدياد بحجم الطبقة الوسطى، بالإضافة إلى ازدياد عدد التجار ونمو الجهاز الاداري للدولة وكذلك زيادة اعداد الموظفين والتقنيين، وكان لليهود الحصة الاكبر في ذلك، إلى جانب تحسن مستوى معيشتهم وازداد عدد اصحاب الحرف والتجار بين افرادها.[٤]

وبعد انتهاء الانتداب البريطاني على العراق بموجب معاهدة عام ١٩٣٢م، وازدياد النمو المتصاعد للطبقة الوسطى، وبدأ المسمون وخاصة الشيعة منهم يزداد دورهم في مجال التجارة والتعليم والوظائف الادارية في القطاعين العام والخاص، فكان من نتيجة ذلك بدأت المكانة الاقتصادية لليهود فيه بالضعف،[٥] وانخفضت حصة التجار اليهود من حجم التجارة

---

(١) خلدون ناجي معروف، الأقلية اليهودية في العراق بين ١٩٢١ و ١٩٥٢، (بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، سلسلة دراسات فلسطينية، رقم ٧، ١٩٧٥م)، ص: ١٢١–١٢٢؛ عباس شبلاق، هجرة أو تهجير، ظروف وملابسات هجرة يهود العراق، ط١، (بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٥م)، ص: ٣٣.

(٢) يشير بطاطو إلى أن الكثير من يهود من اصل بغدادي، ومحتمل أنهم هاجروا من العراق إلى ساحل مالابار في القرن التاسع. واستفاد يهود العراق من روابطهم مع يهود الهند. بعد الغاء احتكار شركة الهند الشرقية للتجارة عام ١٨٣١م اندفع يهود العراق إلى الهند باعداد كبيرة للربح. واستقر البعض منهم هناك مثل عائلة ساسون في بومباي وعائلتي يهودا وإزرا في كلكوتا: العراق، ص: ٢٨٩.

(٣) بطاطو، العراق، ص: ٣١١؛ معروف، الأقلية اليهودية، ص: ١٢١–١٢٢.

(٤) بطاطو، العراق، ص: ٢٩٤–٢٩٥؛ شبلاق، هجرة، ص: ٢٦.

(٥) بطاطو، العراق، ص: ٣٤٧–٣٤٩.

الكلي. وعندما هاجر اليهود من العراق في بداية الخمسينات من القرن الماضي، أخذ التجار الشيعة مكانهم في غرفة تجارة بغداد وحلوا محلهم.(١)

يلخص بطاطو في دراسته للتحولات البنيوية لطبقات المجتمع العراقي الى تطور الطبقية والوجاهيه فيه على اسس الولاءات الاجتماعية القائمة على المصالح المشتركة والتي اساسها رأس المال او الثروة باعتبارها مصدر القوة للسلطة والمتمثلة بكسبها لولاءات اصحاب رؤوس المال، وصعوبة التمييز بين الطبقات، إذ كانت متداخلة فيما بينها.

(١) للوقوف على اسباب الهجرة وحادثة الفرهود ينظر: عبدالرزاق الحسني، الاسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحريرية، ط٢، (صيدا، مطبعة العرفان، ١٩٧١م)، ص: ٣٥٠-٣٥١؛ يوسف مثير، خلف الصحراء: الحركة السرية الطلائعية في العراق، ترجمة: حلمي عبدالكريم الزعبي، (بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، ١٩٧٦م)، ص: ٦٢-٦٤.

الخاتمة

تبين من خلال هذا البحث جملة من النتائج لعل اهمها:

١-كان للتحول التدريجي للعراق نحو النظام الرأسمالي والمتمركز الشديد في ايدي عدد قليل من الشيوخ والزعماء القبليين والاغوات دور كبير في ظهور وتشكل الطبقات في العراق.

٢-احدثت التغيرات البنيوية تغيرات مفاجئة داخل الطبقات الاجتماعية صعوداً ونزولاً.

٣-خلص بطاطو للدور الكبير للملكية في تحضير المجتمع العراقي ولكنها اعاقتهم في الالتحام بأمة واحدة.

٤-تعود اهمية دراسته الى منهجيته التي اتبعها في دراسته للطبقات الاجتماعية العراقية والتي ولدت في اتون التحول الاقتصادي العالمي. ولجأ الى تحليل طبقية المجتمع العراقي بناءً على منهج ماركس وفيبر والمنهج البنيوي.

٥-تألفت الطبقات التي درسها من عناصر مختلفة يصعب التمييز بين عناصرها وافرادها واختلافاتهم الأثنية والدينية والمذهبية، لذلك فأنها كانت لاتتصرف كوحدة واحدة في كل مرحلة من مراجل وجودها التاريخي.

٦-لم يدرك خصوصية المجتمع العراقي والصراع فيه مابين الحضارة والبدواة، والتي اثرت على استقراره الاقتصادي.

٧-اصراره على التعامل مع الولاءات العشائرية وتحولها باعتبارها مخلفات لولاءات قديمة تختفي في حال ظهور التجانس الوطني وتشكله على ارض واقع العراق.

التوصيات

استخلاصاً من التحليلات السابقة للموضوع، يرى البحث أن هناك بعض التوصيات نأمل أن يؤخذ بها، وهي:

١- محاولة إثراء المكتبة العربية بدراسات جدية تتناول مدى تأثر طبقيات المجتمع العربي بالتحولات البنيوية وخاصة الاقتصادية العامية، ومدى تأثيرها على هذا هيكلية الطبقة الاجتماعية.

٢- تقديم دراسات أكثر عمقاً للوقوف على أهم المناهج التي يمكن إتباعها في تأريخية الطبقات الإجتماعية.

٣- اعادة النظر في أطروحات بطاطو، ومحاولة دراستها في ضوء التطورات العالمية الجديدة ومن ضمنها التأثيرات السوسيو إقتصادية، في حين جعل بطاطو الولاء العشائري المحددّ الرئيسي لتحّول طبقية المجتمع العراقي.

ثبت المصادر

أولاً: المصادر العربية

- الاسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحريرية، عبدالرزاق الحسني، مطبعة العرفان، صيدا، ط٢، ١٩٧١م.
- الف باء الجدلية، فاسلي بودوستنيك، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، ١٩٧٩م.
- الأقلية اليهودية في العراق بين ١٩٢١ و ١٩٥٢، ناجي خلدون معروف، مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، جامعة بغداد، سلسلة دراسات فلسطينية، رقم ٧، ١٩٧٥م.
- البنيوية، جان بياجيه، ترجمة: عارف منيمنة وبشير اوبري، منشورات عويدات، بيروت، ط٤، ١٩٨٥م.
- "تاريخ العراق ومجتمعه بين حنا بطاطو وعلي الوردي"، دينا رزق خوري ، مجلة عمران للعلوم الإجتماعية والإنسانية، العدد ٢٤/٦، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ربيع ٢٠١٨م.
- تاريخ اليهود في بلاد العرب: في الجاهلية وصدر الإسلام، اسرائيل ولفسون، ترجمة: جوزيف نسيم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٩٢٧م.
- حنا بطاطو في سيرته ومنهجه وتفسيره لتاريخ العراق، سيار الجميل و ابراهيم الحيدري، تحرير: مازن لطيف، لبنان، كندا، ط١، ٢٠١٥م.
- "حنا بطاطو مؤرخ الطبقات الاجتماعية العربية الفذ"، اسعد ابو خليل، مجلة الاخبار، لندن، العدد ٢٤٢٨، السبت ٢٥ اكتوبر عام ٢٠١٤.
- حياتي في نصف قرن، احمد سوسة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م.
- خلف الصحراء: الحركة السرية الطلائعية في العراق، يوسف مثير، ترجمة: حلمي عبدالكريم الزعبي، مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٧٦م.
- الطبقات والتراصف الطبقي، روزماري كرومبتون، ترجمة: محمود عثمان حداد و غسان رملاوي، مراجعة: سعود المولى، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٦م.
- العراق قديما وحديثا، عبدالرزاق الحسني، الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.
- علم الإجتماع بين الفهم والتفسير، جميل حمداوي، الالوكة www.alukah.net.
- ملك العراق الصغير فيصل الثاني، ذكريات مربية الملك بتي موريسون وصديقه مايكل ارنولد، علي ابو الطحين، ترجمة واعداد: علي ابو الطحين، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر، بغداد، ط١، ٢٠١٥م.

- موجز تاريخ يهود العراق: من سبي بابل إلى نزوحهم عام ١٩٥١م، نسيم رجوان، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، القدس، ١٩٩٨م.
- موسوعة عشائر العراق، عباس العزاوي، الدار العربية للموسوعات، ١٩٥٢م.
- نزهة المشتاق في تاريخ اليهود العراق، يوسف رزق الله غنيمة، مطبعة الفرات، بغداد ١٩٢٤م.
- هجرة أو تهجير، ظروف وملابسات هجرة يهود العراق، عباس شبلاق، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ٢٠١٥م.
- الوقائع الحقيقة في الثورة العراقية، علي آل بزركان، بغداد، ١٩٥٤م.

ثانياً: المصادر الأجنبية

- History of Sociology, Harry Barnes, University of Chicago Press, 1966m .
- Letters and Autobiographical Writings, C. Wright Mills, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, Califomia, 2000.
- Social Origins of Dictatorship and Democracy: Lord and Peasant in the Making of the Modern World, Jr Barrington Moore, Press Boston, 1966.
- Social Theory: The Multicultural and Classic Readings, Charls Lemert, Press, Boulder, CO, 2010.